﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾

[الغاشية: 1 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تفخيمُ أمرِ الغاشيةِ التي يفترق فيها النّاسُ إلى شَقيٍّ أو سعيدٍ

لمّا هوّل الله تعالى أمر الغاشية بوصفِها وعمومِها؛ زادَ بالتّهويل بما ذَكَر من أحوالِها في تفصيل النّاس إلى فريقيْن: أشقياء، وسعداء. وبدأ بذِكْرِ أوصاف الأشقياء أهلِ النّار؛ لأنَّ المقام لإنذار المُؤثِرين للحياة الدّنيا[1]، فقال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾. ولمّا وصفَهم بهذه الصّفات الثّلاث شَرَع في ذِكرِ أنواعِ عذابِهم الذي لا يكون إلّا على ما يكرهه المُعذَّب[2]، وذلك ببيان أنواعِ عذابِهم في مكانِهم ومَطعمهم ومَشربِهم، فبدأ بمكانِهم[3] فقال: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾. ولمّا ذكرَ الاحتراقَ بالنّار يَحضُرُ في الذّهن تطلُّبُ إطفاءِ حرارتِها بالشّرابِ[4]؛ فإنَّ مَنْ كان في أشدِّ الحرِّ أحوج ما يكون إلى ما يُبرِّد باطنَه[5]، فقال في مشربِهم: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾.

ولمّا ذكرَ ما يُسقَونَه على وجهٍ عُلِمَ أنَّه لا يُلَذَّذُ ولا يروي من عَطَشٍ[6]، يَخطُر في الذِّهن معرفة ما يطعمونه، فبيَّن طعامَهم إثرَ بيانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 2 - 3.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 4.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 139.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 4 - 5.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 5.

شرابِهم[1]، فقال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾. ولمّا ذكرَ الضَّريعَ وصَفَه ليعلَمَ أنَّه لا نفعَ فيه ولا يسدُّ جوعًا، وأنَّه تمحَّضَ للضرِّ والأذى، فقال تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَدِيثُ﴾: يدور معنى (حدث) على كونِ الشَّيءِ بعدَ أن لم يكن. يُقالُ: حَدَثَ أَمْرٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ[2]. وأصلُ معنى كلمة (الحديث) من طريِّ الثّمار؛ لأنَّه صار ثمرًا بعد أن لم يكن. ومنه: الرَّجلُ الحَدَثُ؛ أي: الطَّريُّ السّنِّ، والحَديثُ: الجديدُ من الأشْياء[3]، وأمّا الحديثُ من الكلامِ فمأخوذٌ من هذا؛ لأنَّه كلامٌ يحدثُ منه الشّيءُ بعدَ الشّيءِ[4]. وكلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السَّمعِ أو الوحيِ في يقظتِه أو منامِه يقالُ لهُ: حديثٌ[5].

2) ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾: يدور معنى (غشي) على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ. وغشيَه: سترَه. والغاشية: اسمُ فاعلٍ من الغشاءِ وهو الغطاء، والغِشاوة: ما يُغطَّى به الشّيءُ[6]، وأصل الكلمةِ من غاشيةِ السّرجِ؛ أيْ: غطاؤه[7]. والرّجل يستغشي ثوبَه كي لا يُسمع ولا يُرى، وغَشَيْتُ موضع كذا: أتيته؛ لأنَّه إذا أتاه غطّاه[8]. والغاشيةُ هنا اسمٌ من أسماء القيامة، وقيل للقيامة: غاشيةٌ؛ لِأنَّها تَعُمُّ الخلْقَ أجمعينَ[9]، أو: لأنَّها تغشى الخلقَ وتُغطّيهم بإفزاعِها[10]. وكلا المَعنيَيْن صحيحٌ ومقصودٌ.

3) ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: يدور معنى (خشع) على التّطامُن والضّراعة. والخشوع يكون على الجوارح ويظهر عليها، والضّراعةُ تكون في القلب. ويُقال: خَشَع الرّجل يخشَع خشوعًا، إذا رمَى ببصره إلى الأرْض. واختَشَع، إذا طأطأ صَدره وتواضع. وأصل الكلمة من الخُشْعَةِ:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 297.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (حدث).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حدث).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(5) الرّاغب، المُفردات: (حدث).
(6) الرّاغب، المُفردات: (غشي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غشي).
(8) الرّاغب، المُفردات: (غشي).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غشي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غشي).

وهي قِطْعَةٌ مِنَ الأَرْضِ قُفٌّ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ السُّهولَةُ. وكلُّ مُتضائلٍ ساكنٍ يُقال له: خاشعٌ[1]. و﴿خَٰشِعَةٌ﴾ في الآية الكريمة بمعنى مُنكَّسةٌ ذليلةٌ مُنكسرةٌ.

4) ﴿عَامِلَةٌ﴾: (عمل) أصلٌ يدُلُّ على جُهدٍ مادّيٍ (من حيٍّ أو جمادٍ) يؤدّي إلى إحداثِ شيءٍ أو هيئةٍ أو نقلةٍ ... إلخ؛ كعامل السِّنان يَعْمِده ويَدْعَمه في اندفاعه لمخالطةِ الضريبةِ، وكقوائمِ الدّابَّةِ تُحرِّكه إلى مكانٍ (آخر)، وكالشَّراب المخلوط هو من صُنع الإنسان وليس طبيعيًّا، وكالطريق المُعْمَل صُيّر على هذه الصِّفة بكثرة السالكين، وكالعَمَلة بأيديهم في الطين والحفر، وكذلك الزراعة والتلقيح والسَقْي، كلُّ ذلك لاستحداث أمورٍ مادّيَّةٍ أو تحصيل جديدٍ[2]. يُقال: عمِل فلانٌ العَمَل يعمَله عَمَلاً فهوَ عامل[3]، وكلُّ فعلٍ يُفعل هو عَمَلٌ. والعمل فيه تَعَنٍّ للعامل وجهد منه وقصدٌ إلى عمل شيءٍ. وكلّ فعلٍ يكون مِمَّن له حياةٌ بقصدٍ هو عملٌ، والعمل يُستعمل في الأعمال الصالحة والسّيئة والسّهلة والشّاقَّة[4]، ويعمُّ أفعال القلوب والجوارح[5]. و﴿عَامِلَةٌ﴾ في الآية بمعنى: مُكلَّفٌ بالأعمال الشّاقَّة يوم القيامة.

5) ﴿نَّاصِبَةٌ﴾: يدور معنى (نصب) على إقامة الشّيء ورفعِه مستقيمًا قويًّا إلى أعلى، ومنه: نصبتُ الرّمح، أيْ: أقمته إلى أعلى ورفعته[6]، والنّصَبُ: الإعياءُ من العناءِ وبذل الجهدِ[7]. ومَعْناهُ أنَّ الإنْسانَ لا يَزالُ مُنْتَصِبًا حَتَّى يَعيَى[8]. والنّصَبُ التَّعبُ. وأنصبني هذا الأمر؛ أيْ: أتعبني وأزعجني[9]. و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في الآية بمعنى: مُتعبة[10].

6) ﴿تَصْلَىٰ﴾: الصَّلْي – من أصل (صلي) – الإيقادُ بالنار[11]. وصَلَيْتُ الشاةَ: شويتها

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 15/ 200.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (عمل).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عمل).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 616.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نصب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(9) الرّاغب، المُفردات: (نصب).
(10) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 472.
(11) الرّاغب، المُفردات: (صلا).

بالنّار، وهي مَصْليَّةٌ. وصَليَ الكافرُ النار: احترق بها وقاسى حرَّها[1]. يُقال: أصليتُ الشّيءَ إصلاءً، إذا ألقيته في النّار تريد الإحراق[2]. والصِّلاءُ: ما يُصْطَلَى بهِ وما يُذْكَى بهِ النّارُ ويوقَدُ[3]. وصَلَيْتُ العودَ بالنّارِ إذا أدرتَها لتليينها تريد تقويمها[4]. وصَليت بالأمر أصلَى بهِ: إذا قاسَيْت شدّتَه وتَعَبه[5]. وتصلى نارًا بمعنى تدخل النّارَ وتذوق شدَّة حرِّها.

7) ﴿حَامِيَةً﴾: (حمي) أصلٌ يدُلُّ على الحرارةِ المُتولِّدة من الجواهر المحميَّة، كالنّار والشَّمس، ومن القوّة الحارَّة في البدن[6]، وحَمْوُ الشمس وحَميُها - بالفتح فيهما - : حَرُّها. وقد حَميَت الشمسُ، والنارُ، والتّنّورُ - كرَضِى: اشتدَّ كُلٌّ منها. والمعنى المحوري لها: حدّةٌ بالغةٌ في الشَّيء تمنع الاقتراب منه: كالحرارة للشمس والنار[7]. و﴿حَامِيَةً﴾ في الآية الكريمة بمعنى: شديدة الحرارة. فهي متوهِّجةٌ من شدَّة الحرِّ[8].

8) ﴿تُسْقَى﴾: يدور معنى (سقي) على تحصيل الماء ونحوه من المائع في الجوف بإنفاذه إليه، كما في شُرب الماء[9]. والسّقيُ إشْرابُ الشَّيْءِ الماءَ وما أشْبَهَهُ. تَقولُ: سَقَيْتُهُ بيَدي أسْقيهِ سَقْيًا، وأسْقَيْتُهُ، إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا[10]. وسقاية كلِّ شيءٍ يكون بالشّراب[11]. والسَّقْيُ والسُّقْيا: أن يُعطيه ما يشرب. وهو المعنى المقصود في الآية.

9) ﴿عَيْنٍ﴾: (عين) أصلٌ يدُلُّ على دائرةٍ ينفذ منها لطيفٌ لامعٌ دائمُ الجريان عن مختزَنٍ كثير[12]؛ فمن ذلك العينُ يَدُلُّ عَلَى عُضْوٍ بهِ يُبْصَرُ ويُنْظَرُ، مستديرةٌ وتمتدُّ منها وإليها أشعَّةُ قوَّة الرؤية. ومن ذلك: اليَنبوع الَّذي يَنْبع من الأرْض ويجْري[13]. وإنَّما سُمّيَتْ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلا).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (صلى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صلا).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صلا).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صلى).
(6) الرّاغب، المُفردات: (حمى).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حمو - حمى).
(8) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 473.
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سقى).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقى).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سقى).
(12) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عين).
(13) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عين).

عَيْنًا على الاستعارة تَشْبيهًا لَها بالعَيْنِ النّاظِرَةِ لِما فيها من الماء ولِصَفائِها[1]. وهي المقصودة في الآية الكريمة.

10) ﴿ءَانِيَةٍ﴾: (أني) أصلٌ يدُلُّ على إدراكِ الشَّيء، وبلوغِ الشَّيءِ منتهاه. يُقال: انتظرنا إنَى اللَّحم؛ أيْ: إدْراكَهُ. وتَقولُ: ما أنَى لَكَ ولَمْ يَأْنِ لَكَ؛ أيْ: لَمْ يَحِنْ. و"أنَى الماءُ المُسخَّن يأني" إذا أدرك غايته في الحرِّ وبَلَغَها[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: 44]؛ أيْ: بلغ إناه وغايته من شدّة الحرِّ. و﴿عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾: قد تناهى حَرُّها وبَلَغَ أشُدَّه[3].

11) ﴿ضَرِيعٍ﴾: (ضرع) أصلٌ يدُلُّ على رخاوةٍ أو رِقَّةٍ بالغتان مع تَدلٍّ؛ أيْ: دُنوٍّ ومقاربة من الحصول في الحيز: كحال الشّاة والنّاقة المُضْرِعَتين: رخاوةُ ضَرْعيهما وتدلّي الضَّرعيْن يدُلُّ على قُربِ النِّتاج[4]؛ وكذلك الضَّريع، اسمٌ لنبتٍ لائطٍ بالأرض، ينمو بالحجازِ، فإذا كان رطبًا سُمّيَ بالشِّبْرِقِ، تأكله الإبل والدوابُّ ما دام رطبًا فإذا هاجَ ويبس صار له شوكٌ وسُمّيَ بالضّريع، وتَركَت الدوابُّ حينئذٍ أكْلَه، ولم تقرّبه وعافَتْه لِخُبثِه وبشاعته وكثرة ما عليه من الشّوك[5]. فمِن أوصافه أنَّه نباتٌ أخضرُ مُنتنٌ خفيفٌ، ففيه مع الرَّخاوة دُنوُّ القيمة. وليس للكفّار في النار أكلٌ غير الضّريع، فإذا أكلوا منه غصّوا[6].

12) ﴿يُسْمِنُ﴾: يدور معنى (سمن) على امتلاء البدن وغِلَظِه[7]. والسِّمْن نَقيضُ العجَفِ والهُزال[8]، وسَمِنَت الماشية سَمانةً: كثُر لحمُها وشَحْمُها[9]. والسِّمَنُ: زيادةُ البدنِ من الشَّحم واللَّحم[10]. و﴿لَّا يُسْمِنُ﴾؛ أيْ: لا يسْمن بدن الكافر من الهُزال.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآيات ترغيبٌ للمُخاطَبين فيما تُحمَد عاقبتُه، وتحذيرٌ عمّا يذمُّ فيها، وتبيينٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (عين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (إنى).
(3) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 341.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضرع).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ضرع)، والماتريديُّ، تأويلات أهل السُّنَةِ: 10/ 509.
(6) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 721.
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سمن).
(8) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (سمن).
(9) الوسيط: (سمن).
(10) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 848، وأبو حفص النسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/ 405.

أنّ العاقبة المحمودة مُتَّصلةٌ باكتساب المرءِ وكدحه، وكذلك العاقبة المذمومة ينالها بعمله ونَصَبِه[1]. فيقول الله تعالى: هل بلغك يا محمَّد ﷺ نبأُ القيامة التي تغشى النّاسَ بأهوالِها وشدائِدها؟ فتفصيل شأنَ النّاسِ في ذلك اليومِ هو أنْ تكونَ وُجوهٌ ذَليلةً يظهر عليها الخزي والهوان - وهي وجوه الكفّار -، يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُرهِقةً، يَدخُلونَ نارًا شَديدةَ الحرارةِ، ويُسقَونَ من شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ، ليس لهم طَعامٌ إلّا من نبت الضّريع. أو تشبيهًا له بمرعى السّوء الذي تعافُه الإبل السّائمة ولا تأكله لأذاه وضرّه، ثمّ بيّن أذاه وضرَّه فذَكَر أنَّ هذا الطّعام لا يُسمِنُ آكِليه، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا من ألمِ الجوعِ[2].

العاقبةُ محمودةً كانت أو مذمومةً متّصلةٌ بعمل المرء وكسبِه ونصبه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ بـ ﴿هَلْ﴾:

يحتمل أن يكون الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ على حقيقتِه، وهو استفهامٌ صوريٌّ، لا يُقصد منه الجواب بنعم أو لا، بل هو استفهامٌ تشويقيٌّ. يُكنَّى به عن أهمّيَّةِ الخبَرِ، بحيث شأنُه أنْ يكونَ بلَغَ السّامعَ[3]، فيكون من مجاز الاستفهام، يُقصدُ به تحريكُ نفوس السّامعين إلى تلقّي الخبر، وتشويقهم إلى الحديث عنها؛ وتعظيمًا لشأنِ الغاشية، بما ذُكر مِن خَبَرها[4]. وفي التّعبير بالاستفهام والجواب عنه إشارةٌ إلى أنَّ تعليم حديث الغاشية نعمةٌ عظيمةٌ، وأنَّ معرفتَها وأحداثَها مطلوبٌ، فيكون من قبيل تعديد النّعم. فلولا إخبار الله تعالى به لَما عَلِمَه رسولُ الله ﷺ ولَما علمَه النّاس. فالمقصود هو تعريفُ الرّسول ﷺ والنّاس تفاصيلَ

تعليمُ حديثِ الغاشيةِ نعمةٌ عظيمةٌ، ومعرفةُ أحداثِها مطلوبٌ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 10/ 508.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 457 - 465، والمراغيّ: تفسير المراغيّ: 30/ 132.
(3) السّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 765، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 148.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 523.

أوصاف الغاشية وأحوالَ مَن فيها مِن فريقَي الطّائعين والعاصين؛ ليأخذوا أُهبتَهم ويتزوّدوا لها. فالسِّرُّ اللطيف، والمعنى البديعُ في ورود الكلام في مثل هذا الاستفهام أنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أنْ يخبِرَ مخاطَبَه بأمرٍ عجيبٍ ينبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذِّهن له، صَدَّرَ له الكلامَ بأداةٍ تُنَبِّهُ سَمعَهُ وذِهنَهُ للخبر، فتارةً يُصدِّره بـ"ألا"، وتارةً يُصدِّره بـ"هل"، فيقولُ: هل علمتَ ما كان من كيتَ وكيتَ؟ إمّا مُذكّرًا به، وإمّا واعظًا له مُخوِّفًا، وإمّا مُنبِّهًا على عَظَمَةِ ما يُخْبَر به، وإمّا مُقرِّرًا له. فقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ [النّازعات: 15]، و﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ [ص: 21]، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤﴾ [الذاريات: 24] مُتضمِّنٌ لتعظيمِ هذه القصص، وللتَّنبيه على تدبُّرها، ومعرفة ما تضمَّنته[1].

حديثُ الغاشيةِ مُـقـرَّرٌ حاصلٌ قريبُ الوقوعِ

ويحتمل أن يكونَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ على معنى التّقرير؛ أيْ: قد أتاك حديث الغاشية[2]؛ وعبّر بصيغة الماضي ﴿أَتَىٰكَ﴾؛ لتأكيد تقرير إتيان حديث الغاشية المذكور في هذه السّورة وتقريبِ وقوعِه. فالمعنى: (قد شارف إتيانُه)[3]؛ وكأنَّ كلَّ ما يتعلّق بوصف الغاشية سيكون حديث هذه السّورة. ومن فوائد التّقرير بأداة الاستفهام ﴿هَلۡ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ حديث الغاشية أمرٌ عظيمٌ وأنَّه ينبغي الإيمانُ به وتلقّيه بالقبول. ولمّا كانت صيغة (قد فعل) على معنى أنَّ الأمرَ كان متوقَّع الحصول فحصل[4]؛ كان قولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ على معنى أنَّ حديث الغاشية مُتوقَّعٌ وقوعُهُ وأنَّه مُتحقّقُ الوقوع لا شكَّ فيه. وفي التّعبير بالاستفهام على معنى: (قد أتاك) إشارةٌ كذلك إلى الرَّدِّ على المُنكِرين الذين استأخروا

(1) ابن قيّم، الرّسالة التّبوكيّة، ص: 73 - 74.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 318.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 230.
(4) ابن يعيش، شرح المُفصّل: 5/ 92.

وقوعَها. فاجتمع في صيغة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ على معنى (قد أتاك) تحقُّقُ وقوع حديث الغاشية وتقريبُ وقوعِه والإخبارُ عن عظيم شأنِه، وأنَّه ينبغي تلقّيه بالقبول وعدم إنكارِه. وفيه كذلك تعجيبُ السّامع ممّا سيذكر بعد، وتشويقُه إلى استماعِه لعِظَمِهِ وفخامتِه، ولِما يَترتَّبُ عليه من الموعظةِ.

سِرُّ إيثارِ الفعلِ (أتَى) دون (جاء):

عُبِّر بالفعل (أتَى) في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ دون أن يُقال: (هل جاءك حديث الغاشية)؛ لِما يدلُّ عليه التَّعبيرُ بالإتيان مِن سهولةِ الأمر ويُسرِه؛ فضلًا عن بيان تحقُّق وقوعِ الغاشية وقُربه؛ فهي مع كونِها داهيَةً تعمُّ الخلقَ كلَّهم ومع عِظَم أهوالِها، لكنَّ الإتيان بها سهلٌ ويسيرٌ عند الله تعالى. وأيضًا لمّا كان الكلام في الإخبار عن حديث الغاشية ولمّا كان الخطاب موجَّهًا إلى رسولِ الله ﷺ؛ ناسب التَّعبيرُ بلفظٍ يدُلُّ على السّهولة واليسر تشريفًا لمقام الخطاب، في حين أنَّه تعالى لمّا أخبر عن وقوعِ الطّامَّة والصّاخَّة وليس الحديث عنها ولم يكن الخطابُ موجَّهًا إلى رسولِ الله ﷺ قال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٣٤﴾ [النازعات: 34]. وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ [عبس: 33]، للإشارة إلى أنَّ مجيئها شديدٌ على النّاس.

الإتيانُ بالغاشيةِ يسيرٌ عند الله تعالى مع كونها داهيةً عظيمةً

دلالةُ عَود ضمير الخطاب في ﴿أَتَىٰكَ﴾:

يعود الضَّمير في ﴿أَتَىٰكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ إلى الرَّسول ﷺ، ويدخل فيه كلُّ مُخاطَبٍ تبعًا. وإنّما جاء الكلام بطريق الخطاب لأشرَفِ خَلقِه ﷺ؛ لأنَّه يكون أكثرَ أثرًا في تحريك النُّفوس إلى تلقّي الخبر بالقبول وأعظمَ في تقدير أتباعه[1]، فإنَّ تقديرَ المتبوع تقديرٌ لأتباعِه. وفي خطاب نبيِّ الله ﷺ أيضًا

إخبارُ رسولِ الله ﷺ بحديثِ الغاشية عَلَمٌ من أعلامِ النُّبوَّةِ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 22/ 2.

تنبيهٌ على أنَّ إتيان هذا الحديث إليك - يا محمَّد - عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة؛ فإنَّ حديث الغاشية من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك حديثُها من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلّا مِنّا قِبَلِنا؟[1].

دلالةُ توجيهِ الخطابِ إلى الرَّسولِ ﷺ:

المُكذِّبُ بنبوّته ﷺ هو من أهلِ الشّقاءِ، والمُصدِّقُ بها من أهلِ النّعيمِ

عُلِمَ مِن سياق توجيه الخطابِ إلى الرّسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ أنَّ الوجوهَ الأولى في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ وجوهُ المكذّبين بالرّسول، والوجوه المذكورة بعدها في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ وجوه المؤمنين المُصدِّقين بما جاء به[2].

سرُّ إيثارِ مُفردةِ ﴿حَدِيثُ﴾ دون غيرها:

حديثُ الغاشيةِ من الأخبارِ البديعةِ التي ينبغي التَّحدّثُ بها

عُبِّر بمُفردة ﴿حَدِيثُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ دون أن يُقال: (هل أتاك خبرُ الغاشية) أو ما يقرب منها؛ لمناسبةِ المُفردة للمقام، وبيانُه أنَّه لمّا كان الحديثُ هو الخبرَ المُتحدَّثَ به، فهو بصيغة (فَعيل) بمعنى (مفعول)، أو هو الخبر الحاصلُ بسبب حِدثانٍ؛ أيْ: ما حدثَ من أحوالٍ[3]، كان التّعبير بمفردة ﴿حَدِيثُ﴾ للإشعار بأنَّ الإخبار عن الغاشية وما يقع فيها من أهوالٍ هو من الأحاديث البديعة التي حقُّها أن يتناقلها الرّواة، ويحفظها النّاسُ ويتنافسون في تلقّيها والحديث عنها من كلِّ حاضرٍ وبادٍ[4].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾:

الظّاهر أنّ المُراد من ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ

(1) ابن قيم الجوزية، الرّسالة التّبوكيَّة، ص: 74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 294.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 294.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 150.

القيامةُ تعمُّ العالَمَ كلَّه بشدائدِها وتُلبسُه أهوالَها

حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ القيامة[1]، كما في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: 55]؛ وذلك لذِكرِ السورة ما يقعُ في يوم وقوعِها. كما أنَّه ذَكَرَ الشَّقيَّ والسَّعيد عند تفصيلِ أحداثِها. وعبّر عنها بالغاشية إشارةً إلى وصفِها الذي تكون عليه؛ لِأنَّ ما أحاطَ بالشَّيْءِ من جميعِ جِهاتِه فهو غاشٍ لهُ، والقيامة كذلك لمجيئِها بغتةً، ولأنّها تعمُّ العالَمَ كلَّه بشدائدها وتُلبسُه أهوالَها، وتجلله، فتغشى النّاسَ من الأوّلين والآخرين وتجللهم. فلا يرون غيرَها ولا يستطيعون أن يفرّوا منها، لأنّها أتتهم فغشيتهم. كما أنَّ في التّعبير بالغاشية إشارةً إلى أنَّها لعظيم شدَّتِها وأهوالِها يُكره ما يقعُ فيها؛ لأنَّ الغشيانَ لا يكون إلّا فيما يُكره[2]. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: 55]. ويُحتمل أن يكون المُراد من الغاشية: النّار[3] من قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 50]؛ والمعنى: تأتي النّار فتغشى أصحابَها وهم الكفّار، فتغطّيهم فلا يرون شيئًا غيرَها ولا يستطيعون أن يفرّوا منها، وتأويل الغاشية بالقيامة أقربُ؛ وهو رأي أكثر المُفسِّرين[4]؛ لأنَّ ما سيُروى من حديثِها ليسَ مختصًّا بالنّارِ وأهلِها؛ بل ناطقٌ بأحوال أهلِ الجَنَّة أيضًا، ذَكَرَ أنَّه يوم إذ تغشاهم الغاشية يكون بَعْضُ النّاسِ في الشَّقاوَةِ، وبَعْضُهُمْ في السَّعادَةِ، فذَكَر أحوال أهلِ النّار وأحوال أهل الجنَّة[5]. فالغاشية هي التي تعمُّ الفريقيْن، وهي القيامة.

فجاء لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التبعيَّة،

(1) الواحديّ، التفسير البسيط: 23/ 456، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 318، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 741.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 22/ 2.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 457، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 318، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 742.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 520.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 138، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 148.

بتشبيه حدثِ القيامة بالغاشية. ووجهُ الشَّبَه هو أنَّ حَدَث القيامة يُغطّي النّاس كلَّهم: الصَّغير والكبير، والشَّقيَّ والسَّعيد تغطيةً مُتمكّنةً منهم بأهوالِها وشدائِدِها، مع مباغتتها على النّاس، فإذا حصلت لم يجد النّاس مفرًّا من أهوالِها. وهو حالُ مَن تعمُّ تغطيتُه بشيءٍ لا يمكنه الخروج منه. فكأنَّها غاشٍ يغشى عقولَهم[1].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾:

﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ اسم فاعلٍ مُؤَنَّثٌ من مصدر الفعلِ: (غَشِيَ)، وهو عَلَمٌ بالغَلَبَةِ على ساعةِ القيامةِ، كما يُؤْذِنُ بذلك قولُه عَقِبَهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾. ولم يُستعمل اللفظُ إلّا بالتّاء؛ والتّاء اجتمعت فيها ثلاثة معانٍ: الأوّل تأنيث اللفظ، لتأويلِ الغاشية بالحادثة العظيمة[2]، والثاني: معنى المبالغة في الغشيِّ، فتكون مثل تاء الدّاهية والطامّة والصّاخَّة التي للمبالغة؛ أيْ: للإشارة إلى كمالِ الوصفِ؛ فهي الدّاهية الشَّديدة التي تغشى النّاسَ كلَّهم وتُغطّيهم بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها. والثالث: نقل اللفظ من الوصفيَّة إلى العلميَّة، فيكون اسم الغاشية فيه معنى الصّفات الغالبة، و(أل) في الغاشية تحتمل أن تكون للعهد الذّهني[3]، وذَهَبَ أبو حيّان إلى أنَّها اسمٌ موصولٌ باسم الفاعل، بتقدير: التي غشيت[4]؛ لينتظم عود التّنوين في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى أن يكون تنوين عوضٍ عن جملة سبقت؛ أيْ: (يومَ إذْ غشيت).

الغاشيةُ هي الداهيةُ الشديدةُ التي تغشى النّاسَ كلَّهم وتُغطّيهم بشدائدِها

علّةُ ذِكْرِ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ مِن غيرِ ذِكْرِ (اليوم):

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، ولم يَقُلْ: (هل أتاك حديث يوم الغاشية)، فلم يذكر اليوم واقتصر على الوصف؛ لأنَّ

تشويقُ المُخاطَبين للحديثِ عن أحوالِ النّاسِ يومَ الغاشيةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 294.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 295.
(3) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 2168.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 461.

تعريف الحديث بطريق الإضافة إلى الوصفِ بالغاشية دون ذِكْر الموصوف وهو (يوم) هو إبهامٌ لزيادة التّشويق إلى بيانِه الآتي في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ ليتمكّن الخبرُ في ذهن المخاطبين تمامَ التمكّن[1]، فيُسألُ بعد ذلك عن ما يقع من الأحوال على النّاس في ذلك اليوم. كما أنَّ الحديث عن الشّيء أوّل ما يكون في ذِكْر حقيقتِه ووصفِه. قبل ذِكْرِ وقتِه وزمانِه. وفي موضعٍ آخر من القرآن لمّا كان المقصود بيان الوقت وعظم ما يقع في ذلك الزّمان، عبّر بيوم القيامة فقال: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة: 6]، ثمَّ قرّر معنى التنبّه على ما يقع في وقتِها بذِكْر ظرف الزّمان الشّرطيِّ فقال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ [القيامة: 7].

دلالةُ الاستئنافِ في جملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾:

بيانُ صفةِ الغاشيةِ بعد التّشويقِ لمعرفتِها

يحتمل أن تكون جملة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا لتكون جوابًا عن سؤالٍ نَشَأ من الاستفهام التَّشويقيِّ. كأنَّه قيلَ من جهتِه ﷺ (ما أتاني حديثُها، فما هو؟) فقيلَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾[2]. ويحتمل أن تكون مُستأنفَةً استئنافًا نحويًّا لبيانِ ما تَضمَّنَتهُ من وجود وجوهٍ في ذلك اليوم مُتَّصفةً بهذه الصِّفة المذكورة[3].

سِرُّ البدءِ بذِكْرِ وجوهِ أهلِ الشَّقاوةِ:

تقديمُ ذِكْرِ أهلِ الشقاوةِ أدخلُ في تهويلِ الغاشيةِ وتفخيمِ حديثِها

بَدَأ السياق القرآنيُّ بذكر وجوه أهل الشّقاوة في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾؛ لمناسبة تصدير الكلام بالغاشية، فتقديمُ ذِكْرِ أهل الشقاوة أدخلُ في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها. ولأنَّ حكاية حُسن حالِ أهل الجنَّة بعد حكاية سوء حالِ أهلِ النار ممّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 294.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 148.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 520.

يزيد المَحكيَّ حُسنًا وبهجةً[1]، كما أنَّ المقام لإنذار المُؤْثرين للحياة الدنيا[2] الذين يتجنّبون الذِّكرى بالقرآن، فقُدِّمَ ما هو الأوْلى بالتّقديم لمناسبة المقام.

بلاغةُ التّعبيرِ بـ(الوجوه) بين المجازِ المُرسَل والكنايةِ:

إذا استحكم الحزنُ والسُّرورُ في المرءِ؛ ظهرَ أثرُهما في الوجهِ أوَّلًا

يحتمل أن يكون التّعبير بالوجوه في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ على طريق المجاز المُرسَل بذِكْر الجزء وإرادة الكلِّ، فذَكَرَ الوجوه وأراد الذّوات[3]، وهم الكفّار؛ لأنَّ ما ذُكر من الأوصاف لا يختصُّ بالوجوه، بدَليلِ أنَّهُ تَعالَى وصَفَ الوُجوهَ بأنَّها ﴿خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، وذلك من صِفاتِ الإنسان، وسببُ التّعبير بطريق المجاز المرسل بذِكْر الوجوه والإخبار عنها بالأخبار المذكورة في الآيات – دون أن يُقال: فريقٌ من النّاس أو ما يقاربه في المعنى من الدِّلالة على الذّات كلِّها – هو أنَّه لمّا كان الوجهُ أشرفَ الأعضاءِ وكان الخشوع يظهر في الوجه أوَّلًا؛ علَّقه به، فيكون في ذِكر الوجه وصفٌ للغايةِ التي هم عليها من الذُّلِّ والخسران؛ أيْ: إنَّه خصَّ الوجه بالذّكر مع الفريقيْن؛ لأنَّ الحزن والسُّرور إذا استحكما في المرء ظهر أثرهما فيه أوَّلًا[4]. فهو كقولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾.

ويحتمل أن يكون ذِكْر الوجوه على طريق الكناية عن أصحابِها، إذ يُكنَّى بالوجهِ عن الذّات[5] كقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرَّحمَن: 27]، وقرينة ذلك هنا قوله بعده: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ إذْ جُعِلَ ضَميرُ الوُجوهِ في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ جَماعَةَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 327.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 3.
(3) السّيوطيّ والمحلّيّ، تفسير الجلالَيْن، ص: 840، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 229، والقنوجيّ، فتح البيان: 15/ 200.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 508، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 138، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 10/ 508.
(5) حقّي، روح البيان: 10/ 413.

العُقَلاءِ. وأوثرت الوجوه بالكناية عن أصحابِها في هذا المقام وخُصَّت بالذّكرِ؛ لأنَّ الحزن والسُّرور إذا استحكما في القلب أثَّرا في الوجه. والوجهُ أوَّل ما يظهر فيه أثر النّعيم أو الشَّقاوة؛ فيكون في ذِكْر الوجه وصفٌ للغاية التي هم عليها من الذُّلِّ والخسران[1]. وأجاز ابن عاشور أن يكون إسناد ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ و﴿عَامِلَةٌ﴾ و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ إلى ﴿وُجُوهٌ﴾ من قبيل الإسناد العقليِّ؛ والمعنى: أصحاب وجوه[2].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿وُجُوهٌ﴾ وجمعِها:

وجـــوهُ أهـلِ الـشّـقـاءِ الخاشعةُ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ

لمّا كان لفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ مبتدأً، وكان الأصل في المبتدإ أن يكون معرفةً؛ كان مجيء لفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ نكرةً مُنوّنًا بقصد التّنويع والتّكثير، فيكون في حُكم النّكرة المُخصّصة؛ والمقصود: بيانُ نوعٍ من أنواع الوجوه التي يكون النّاس عليها يوم تغشى الغاشية. ففيه معنى التّفصيل؛ فيقتضي من ذِكر الوجوه بقصد التّنويع ذِكرَ نوعٍ آخر وهو المذكور في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾، وجاء اللفظ بصيغة الجمع للدلالة على كثرتِها[3]، والمعنى: (وجوهٌ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ).

فائدةُ تقديمِ ظرفِ الزّمانِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على عاملِهِ:

يـوم الغـاشيةِ يخيبُ فيه أهلُ الشّقاءِ ويظهر فـيـه ذلّـهـم وصغارُهم

في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ قُدّمَ ظرفُ الزّمان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الدّالُّ على يوم وقوع الغاشية على خبر المبتدإ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ العامل فيه، للاهتمام بذلك اليوم؛ لأنَّه ظرفٌ لِما يقع فيه من أحداث الغاشية. وفي التّقديم إشارةٌ إلى تخصيص ما يقع بأهل الشّقاء من الأوصاف المذكورة بذلك اليوم، فهو اليوم الذي يخيبون فيه ويظهر فيه ذلُّهم وصغارُهم. وفي تقديم ظرف الزّمان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 10/ 508.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 295.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 22/ 3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 295.

﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أيضًا إشعارٌ بأنَّه ظرفٌ لجميع الصّفات المُخبَر بها؛ أيْ: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، و﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، فضلًا عن رعاية الفاصلة ومناسبة رؤوس الآي[1].

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

بـــابُ الـتـوبـةِ مفتوحٌ لا يوصد

في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أُضيف لفظ (يَومَ) إلى (إذٍ) الاسميّة الزّمانيَّة الدّالَّة على المستقبل للإشارة إلى أنَّ الغاشية وما يقع فيها من أحداثٍ وما يكون عليه أهل الشّقاء إنّما يكون في المستقبل، ففيه تنبيهٌ على أنَّه ما يزال في الوقت بقيَّة للرّجوع إلى الإيمان والتّوبة.

دلالةُ حذفِ الجملةِ المُعوَّضة عن تنوين (إذٍ):

وجـوهٌ خاشعةٌ يـومَ الأهـوالِ الغاشيةِ

التنوينُ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ عوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ مدلولٍ عليها باسمِ الفاعلِ من الغاشية، لِما في لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ من الدلالة على لَمْحِ أصل الصّفة، وتقديره: (يومَ إذ تغشى النّاس)، أو: (يوم إذ تغشى الغاشية)[2].

بلاغةُ الاستعارةِ التّهكّميَّةِ في قوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾:

لمّا تركَ الكافرون الـخـشـوعَ لله كـان جـزاؤهـم خـشـوعَ مَـذَلَّـةٍ وخُسرانٍ

لم توصف الوجوه بالذُّلِّ ابتداء في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾؛ بل قال ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، لِما في الإخبار بوصفها بالخشوع من الإشارة إلى التَّهكُّم بها، فيكون في الكلام استعارةٌ تهكّميَّة، للإشارة إلى أنَّها لم تخشع في وقتٍ ينفع فيه الخشوع[3]. فلمّا تركوا الخشوع لله كان جزاؤهم خشوعَ مَذَلَّةٍ وخُسرانٍ[4]. وفي وصفِ الوجوه بأنَّها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ إشارةٌ إلى معانٍ مجتمعةٍ، فهي ذليلةٌ مُخبِتةٌ من الخجلِ

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 230.
(2) السّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 765، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 351، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 230.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.

والفضيحةِ والخوف والخسرانِ والحسرة التي لا تنفع في مثل هذا الوقت[1]. ويُطلقُ الخشوعُ على المَذَلَّة المقترنة بالحسرة والخجل والفضيحة كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: 45] وقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: 44][2].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ وصوغِها اسمَ فاعلٍ:

غَلَبَةُ الذُّلِّ وطولُ مُدَّتِهِ

جاء لفظ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ خبرًا لـ(الوجوه) في صيغة النّكرة، للإشعار بعَظَمَةِ ذلِّها وكثرتِه، وصيغَ على هيئة اسم الفاعل للإشعار بأنّ وصف الوجوه بالخشوع مُلازِمٌ لها لا ينفكُّ عنها. فصار الخشوع وصفًا لازمًا لها، فهي دائمةُ الخشوع والذُّلِّ.

دلالةُ الإخبارِ عن الوجوه بالوصفيْن: ﴿عَامِلَةٌ﴾ ﴿نَّاصِبَةٌ﴾:

أهـل الشّقـاء يتعبون في النّار ويخوضون فيها صعودًا وهبوطًا

دَلَّ الإخبارُ عن الوجوه بأنَّها ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ على أنَّها يوم القيامة تعمل عملًا شاقًّا، وأنَّها من شدَّة عملِها ومشقّته تنصب وترهق منه. والمعنى: (تَعمل في النّار ما تتعب فيه كجرِّ السلاسل وخوضها في النار كخوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلالها ووهادِها، أو ارتقائها دائبة في صعود من نار، وهبوطها في حدورٍ منها)[3]. وهذا الوجه من التفسير يفيد أنَّ العمل والنّصب كلاهما يوم القيامة، وهذا هو الظّاهر من دلالة قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. وذهب بعض المُفسِّرين إلى أنَّ لكلِّ وصفٍ في قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ وقتًا خاصًّا به، والمعنى: (عاملةٌ في الدّنيا بأعمالٍ لم تنفعها فنصبت يوم القيامة)؛ أيْ: (عملت في الدنيا بالمعاصي وأكثرت منها ونصبت في الآخرة)؛ فيكون فيه تبيين العمل والجزاء[4].

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 22/ 3.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 742، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 307.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 10/ 509.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ في قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾:

في التّعبير بقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ استعارةٌ تهكّميَّةٌ[1] لأهل الشّقاء كذلك، فإنَّه لمّا لم تعمل هذه الوجوه في طاعة الله في الدنيا، أعملها الله تعالى وأنصبها في الآخرة بجرِّ الأغلال والسلاسل في النار الحامية[2]. فجزاؤهم عملٌ مشقَّةٍ ونَصَبٍ وإرهاقٍ[3]. وذهب ابن عاشور إلى أنَّ في قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تعريضًا لأهل الشّقاء[4]. فيكون من قبيل بلاغة التّعريض تحذيرًا لأهل الشّقاء في الدنيا ممّا يصيبهم يوم القيامة.

نـصـبُ أهـلِ الشّقاءِ في الدّنيا فـي المـعـاصي يورِثُهم النَّصَبَ في الـنّـار يـومَ القيامة

علّةُ تقديمِ ﴿عَامِلَةٌ﴾ على ﴿نَّاصِبَةٌ﴾

قُدِّمَ الإخبارُ بـ﴿عَامِلَةٌ﴾ على ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾؛ لأنَّ النّصب يكون بعد العمل الشّاقّ، فيكون الإخبار بوصف ناصبة بيانًا لحاصل ما يصيبها من مشقّة العملِ[5].

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَامِلَةٌ﴾ و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ وصوغِهما اسما فاعلٍ:

جاء اللفظان ﴿عَامِلَةٌ﴾، و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ نكرتيْن لإفادة التّكثير والتّعظيم، بمعنى أنَّ عَمَل أصحاب الوجوه ونَصَبها كثيرٌ وعظيمٌ. وعبّر بهما على هيئة اسم الفاعل للإشارة إلى أنَّ ذيْن الوصفيْن ملازمان للوجوه، فهي تبقى أبدًا في العملِ المتعب والنَّصَب المرهق يوم تغشى الغاشية. والمعنى: (عملها ونصبها دائمان في النّار).

عـمـلُ أهـلِ الشّقاءِ ونصبُهم دائمان في النّارِ

دلالةُ تَنَوُّعِ التَّوجيهِ النَّحويِّ لجملةِ ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾:

الظّاهرُ أنَّ جُملة ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ والجملتيْن اللّتيْن بعدها

تـكـثـيرُ الأخـبـار تكثيرٌ للمعنى لـبـيـانِ مـا يقع على أهلِ الشّقاءِ مـن عـظـيـمِ الأهوالِ

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 351.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 509.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 296.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 351.

من قوله: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ خبرٌ آخر لـ﴿وُجُوهٞ﴾، فتكون مِن قَبيل تَعَدُّد الأخبار لمبتدإٍ واحدٍ[1]، لتكون كلُّ جملةٍ خبرًا آخر للوجوه، فيكون قد أخبر عن الوجوه بستّة أخبار، وكلُّ خبرٍ يُعبِّر عن حالةٍ من حالات أهل النّار. وفي تعدّد الأخبار تكثيرٌ للمعنى وبيانُ تَنوُّعِ مُقاساة أهل النّار في جميع أحوالِهم فيها. كما تحتمل جملة ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةَۢ﴾ وما بعدها أن تكون نعتًا لـ﴿نَّاصِبَةٞ﴾، بمعنى أنَّها وصفٌ لنصَبِ الوجوه، للخبر بما تقاسيه من صليِها في النّار وصعودِها ونزولِها في دركِها وما ترهق به في شربِها وطعامِها. وهذا التّوجيه هو ظاهر كلام الواحدي في قوله: "ثم ذَكَرَ نَصَبَها فقال: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةَۢ﴾"[2]. كما تحتمل جملة ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةَۢ﴾ أن تكونَ استئنافًا مُبَيِّنًا تفاصيل أحوالِها؛ أيْ: تفاصيل ما أخبر به عن الوجوه في كونها خاشعةً عاملةً ناصبةً.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَصۡلَىٰ﴾ مضارعًا:

أهلُ الشّقاءِ يدخلون في عمقِ النّارِ مغمورون فيها وهي محيطةٌ بهم

دلَّ الفعل ﴿تَصۡلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةَۢ﴾ على دخولِ أصحابِ الشّقاء في النّار، وعبّر بـ﴿تَصۡلَىٰ﴾ للإشعار بدخولِهم في عمقِ النّار، وذلك بأن يكونوا مغمورين فيها وهي قد أحاطت بهم؛ لأنَّ الصّلي هو أن يحفر قومٌ حفرةً فيجمعوا فيها جمرًا كثيرًا، ثم يعمدوا إلى شاةٍ فيدسّونها وسطها، فأما ما يُشوى فوق الجمر أو على المقلى أو في التَّنّور، فلا يُسمَّى مصليًّا[3]. فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: 41]، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 148، وحقّي، روح البيان: 10/ 413، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 516.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 460.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 742.

أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 55]، وقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزُّمر: 16][1].

وأفاد التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَصْلَىٰ﴾ استمرار صليهم بالنّار وتجدّده وقتًا فوقتًا فضلًا عن تصويره لحالة الصّلي بالنّار في النَّفس كما تقعُ، حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهدًا للهيئة. ترهيبًا وتخويفًا للسّامعين من الحالةِ ليحذروا من أن يفعلوا فعل أهل الشّقاء.

توجيهُ القراءةِ القرآنيةِ للفعلِ ﴿تَصْلَىٰ﴾:

يوقنُ أهلُ النّارِ أنْ لا مصير لهم إلّا إلى النّار، سواء دخلوها أو أُدخلوا فيها

قرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، ويعقوب (تُصْلَى) بضم التاء بصيغة المبني للمفعول. وقرأ الباقون ﴿تَصْلَىٰ﴾ بفتح التاء بصيغة المبني للفاعل[2]، وتوجيه قراءة (تُصْلَى) بصيغة المبني للمفعول هو أنَّها تُصلَى في النّار قهرًا، زيادةً في العذاب والحسرة والألم؛ أيْ: يصليها مُصْلٍ على أيسر وجهٍ وأسهله بأمرِ مَنْ له الأمر بأن يغمسها قهرًا على وجه الإحاطة بها، وتوجيه قراءة ﴿تَصْلَىٰ﴾ بصيغة المبني للفاعل هو أنَّها تدخل النّار بنفسِها، لعلمِها انَّه ليس لها مصير إلّا إلى النّار؛ أيْ: تدخل النّار وتباشرها بأن يدسَّها فيها أصحابها، فتُحيط بها النّار من كلِّ جانبٍ وهو يدلُّ على غاية الذُّلِّ؛ لأنَّ مَن فعل بنفسه هذا لا يكون إلّا كذلك[3].

فائدةُ تقييدِ الفعلِ ﴿تَصْلَىٰ﴾ بالنّارِ وتنكيرِهِ:

زيادةُ تهويلِ العذابِ وتعظيمُ أمرِه

لمّا كان الصّلي لا يكون إلّا بالنّار - فيُقال: صلي يصلى؛ إذا أصابه حرُّ النّار - كان إسناد الفعل ﴿تَصْلَىٰ﴾ إلى النّار في قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾ لِزيادَةِ التَّهْويلِ والإرهابِ، وليُجْرَى على ﴿نَارًا﴾

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 406.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 140، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 400.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 4.

وصْفُ ﴿حَامِيَةً﴾[1]. وجاء بلفظ ﴿نَارًا﴾ نكرةً منوّنًا لتعظيم أمرِها، فهي نارٌ عظيمةٌ مهولةٌ ليست كنارِ الدّنيا.

سِرُّ وصفِ (النّار) بـ﴿حَامِيَةً﴾ وتنكيرِه:

نـــارُ جـهـنَّـم متناهيةٌ في الحرِّ

لمّا كانت النّار لا تكون إلّا حاميةً - فالحميُ من لوازم ماهيَّة النّار - كان وصفُها بالحامية في قوله: ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ على خلاف ما هو مُتعارفٌ في الكلام مِن وصفِ الشّيء بما هو من لازمِه؛ فيكون القصد من الوصف بقولِه: ﴿حَامِيَةً﴾ نكرةً إفادةَ تجاوز حرِّها المقدارَ المتعارف بين النّاس، والدلالةَ على شدّة الحمَى. والمعنى: (هي متناهيةٌ في الحرِّ)، ومثله في وصفِ النّار بما هو لازمٌ لها قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهُمَزَة: 6][2].

سرُّ صوغ ﴿حَامِيَةً﴾ اسمَ فاعلٍ:

عبّر بصيغة اسم الفاعل ﴿حَامِيَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ للإشعار بأنّها دائمةُ الحميِ، ففي التّعبير إشارةٌ إلى مفارقتِها لنار الدّنيا، بمعنى أنّها ليست كنارِ الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها[3].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿تُسْقَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

أهـلُ الشّـقـاء يُـسـقَـون من سـاقٍ قـهـرًا لا رغبةً فيه

أفاد التّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿تُسْقَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ استمرارَ سقيِهم من عينٍ آنيةٍ وتجدّده وقتًا فوقتًا. وفي التّعبير بصيغة المضارع أيضًا تصويرٌ للحالةِ حتّى يكاد السّامع أن يكون مشاهِدًا لهيئةِ سقيِهم لترهيب المُخاطَبين وتخويفًا لهم من أن يفعلوا فعل أهل النّار.

سـقـيُ أهـلِ الشّقاءِ من عينٍ آنيـةٍ زيـادةً في العذابِ

وعُبِّر بالسّقي دون الشّرب للفرق بين الفعلَيْن، فإنَّ السّقي هو أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 296.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 292.

تُعطيَ الشراب لغيرك، والشّرب هو تناول الشَّراب بنفسِك؛ فعبّر بالسّقي للإشارة إلى أنَّ سقيها من عينٍ آنيةٍ يكون بفعل فاعلٍ على سبيل إهانتِهم وإذلالِهم، فإنَّ مَن يُقدِّم الشّراب القبيح يقصَد منه إهانة مَن يشربُ وإذلالُه؛ لأنَّها تُسقى من ساقٍ قهرًا لا رغبةً فيه؛ ولهذا جاء التّعبير بصيغة المبنيِّ للمفعول ﴿تُسْقَىٰ﴾. كما أنَّ السّقي لا يكون إلّا بعد الحاجة إليه بخلاف الشّرب؛ ولهذا ذُكِرَ السّقي بعد ذِكْرِ الاصطلاء بالنّار؛ لأنَّ ذِكْرَ احتراقِها بالنّار يدلُّ على الحاجة إلى أن تُعطى ما يُبرِّد باطنَها، ويُحضِرُ في الذّهن تطلُّبَ إطفاء حرارتِها بالشّراب، فجُعِلَ شرابُهم من عينٍ آنيةٍ زيادةً في العذاب[1].

سقيُ الشّراب من عينٍ آنية أمارةُ الذُّلِّ والإهانةِ وزيادةُ التّعذيبِ

ولمّا كان السَّقيُ لِما لا كُلفةَ فيه والإسقاء لِما فيه كلفة[2]؛ كان في التّعبير بلفظ السّقي بصيغة المبنيِّ للمفعول في قوله: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ دون الإسقاء إشارةٌ إلى أنَّ أهلَ الشّقاء مُستسلمون لِمَن يسقيهم، فلا يتكلَّفون ردَّهم ولا يمانعون سقيهم؛ لِحاجتِهم إلى ما يُبرِّدُ باطنَهم، فيتوهّمون أنَّهم إن سُقوا بردت أجوافهم وذهبت حرارة لهبِ النّار منهم. ففي التّعبير إيماءٌ إلى التّهكّم بهم.

ومن أسرار التّعبير بالسّقي دون الإسقاء أنَّ السّقيَ إعطاءُ مَن تسقيه ما يشرب، والإسقاءُ أن تَجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء[3]؛ فالإسقاءُ فيه دمج العطاء بالمنَّة والتّكريم، لأنَّ الإسقاء هو أن تجعل له ما يُسقى منه ويشرب؛ فلمّا كان الأمر كذلك كان في التّعبير بلفظ ﴿تُسْقَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ سقيَهم الشّراب من عينٍ آنية على سبيل الذُّلِّ والإهانة، وفيه زيادةُ التّعذيب، لأنَّ السّقي من عينٍ آنية شيءٌ زائدٌ على الاصطلاء بالنّار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 296.
(2) الكفويّ، الكلّيات، ص: 113.
(3) الرّاغب، المُفردات: (سقي).

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عَيۡنٍ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ﴾ لابتداء الغاية؛ بمعنى (يبدأ سقيها من عينٍ آنية، ويأتيها الشّراب من هذه العين الحارَّة القبيحة).

نكتة تنكير ﴿عَيۡنٍ﴾:

سُمّيَتْ العينُ عَيْنًا على الاستعارة، تَشْبيهًا لَها بالعَيْنِ النّاظِرَةِ لِما فيها من الماء ولِصَفائِها. وجاء بها نكرةً مُنوّنًا في قوله تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ﴾ لتهويل شأنِ هذه العين التي تكون في النّار.

سرُّ وصفِ العينِ بـ﴿ءَانِيَةٍ﴾ وتنكيرِهِ:

لمّا كان الآني هو الشّراب - من ماءٍ أو غيرِه - الذي قد انتهى في الحرِّ غايته حتى لا حرَّ أحرُّ منه، كان وصفُ العين بـ﴿ءَانِيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ هذه العينَ بلغت غايتها في الحرِّ، فنضجت غايةَ النُّضج، فيُسقون من عينٍ آنيةٍ لا هنيَّئةٍ ولا مريئةٍ[1]. والمجيء باللفظ نكرةً منوّنًا لتعظيم حرارة هذه العين؛ ففي التّنكير معنى التّهويل.

العينُ الآنيةُ هي التي بلغت غايتَها في الحرِّ، فنضجت غايةَ النُّضجِ

توجيهُ إعرابِ قولِهِ: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾:

الظّاهر أنَّ جملة ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ خبر بعد خبر للمبتدإ ﴿وُجُوهٌ﴾ - كما تقدَّم - فيكون من قبيل تكثير معاني الخبر عن أصحاب أهل النّار، وأجاز بعض المُعربين أن تكون جملة ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ كلامًا مستأنفًا مسوقًا للإجابة عن سؤالٍ مُترتِّبٍ على ما سبق، كأنه قيل: (وما هو طعامهم بعد ما ذكر شرابهم؟)، فقيل: (ليس لهم طعامٌ إلّا من ضريعٍ)[2].

ذكرُ نوعِ الطعامِ بعد الشّرابِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 509، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 22/ 5.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 458.

وجه النفي بـ﴿لَّيْسَ﴾:

لا طعامَ لهم أبدًا غير الضريعِ

لمّا جاءت الأفعال ﴿تَصْلَىٰ﴾، و﴿تُسْقَىٰ﴾ بصيغة المضارع لتصوير الحالة؛ ناسب مجيء النّفي بـ﴿لَّيْسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ لتُفيد نفي الحالِ. كما أنَّ النّفي بـ﴿لَّيْسَ﴾ يُفيد نفي اتّصاف الخبر بالمبتدأ على جهة الاستمرار بقرينة السّياق. والمعنى استمرارُ نفي أيِّ طعامٍ لهم يطعمونه إلّا من ضريعٍ.

معنى (اللام) في ﴿لَهُمْ﴾:

لامُ ﴿لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾ للاختصاص؛ بمعنى ليس لهم طعامٌ مختصٌّ بهم إلّا من ضريع، فهو طعامهم الذي يتناولونه على الدَّوام.

سرُّ العدولِ عن ضميرِ الإناثِ في ﴿لَهُمْ﴾:

اختلافُ الضَّميرِ باختلافِ نوعِ الموصوفِ

التَّأنيث في الصّفات والأفعال السابقة: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، و﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، و﴿تَصْلَىٰ﴾، و﴿تُسْقَىٰ﴾ راجعٌ إلى الوجوه، وكان الظّاهر أنْ يُقال: (ليس لها طعام إلّا من ضريع)، لكنَّ الكلام جاء على خلافِ مقتضى الظّاهر فجاء الضّمير ﴿لَهُمْ﴾ بصيغة جمع الذّكور العقلاء، فقال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، ففيه عدولٌ في عود الضّمير ليكونَ عائدًا إلى مُضافٍ مُقدَّرٍ إلى الوجوه؛ أيْ: (لأصحابِ الوجوه)، أو إلى الذّوات على طريق المجاز كما تقدَّم. وسببُ العدول إلى ضمير جمع العقلاء هو الانتقال من التّعبير عن حالِ أهل الشّقاء وما يقع عليهم في النّار، إلى التّعبير عن وصف طعامهم في النّار دون وصف حالتِهم عند فعلِ الإطعام فيها؛ ولهذا لم يَقُلْ: (لا تُطعم إلّا من ضريع)، أو: (لا تأكل إلّا من طعامٍ من ضريع). فلمّا ذَكَر وصفَ الطّعام الذي يكون لهم في النّار؛ ناسب التّعبير بالضّمير الذي يعود على الذّات.

نكتةُ تنكيرِ ﴿طَعَامٌ﴾:

جاء لفظ ﴿طَعَامٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ نكرةً في سياق النّفي ليُفيد العموم في الكمِّ والنّوع، بمعنى: (ليس لهم أيُّ طعام قليلًا أو كثيرًا، أو أيَّ نوع منه إلّا من ضريعٍ).

بلاغةُ الاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾:

إذا كانت الإبلُ والبهائمُ تعافُ هذا الطعامَ فأحرى أن لا يأكلَه الآدميّون

في قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ جاء الاستثناءُ بـ(إلّا) متَّصِلًا، وهو الظّاهر كما نصَّ عليه أبو حيّان[1]؛ لأنَّ الطّعامَ يُطلَق على ما يُستلَذُّ وما يُكرَه. ولمّا كان الاستثناء منفيًّا جاز في ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾ أن يكون مرفوعًا على البدل من ﴿طَعَامٌ﴾، أو أن يكون منصوبًا على أنَّه مُستثنى[2] على أصلِ الباب. وعلى كلا الوجهيْن يفيد أنَّ لهم طعامًا وهو الضّريع - أي: الشَّجر ذو الشّوك الذي تعافُه الإبل لضرره وقُبحه - ليس بمُسمنٍ ولا مُغنٍ من جوعٍ. وأفاد تقييدُ الاستثناء بقولِه: ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾ أنَّه ليس لهم طعامٌ في أيِّ حالٍ من أحوالِهم في النّار، وفي أي وقتٍ مِن أوقاتِهم فيها، وفي أيِ موضعٍ يتقلّبون فيها إلّا من ضريعٍ. ويُحتمل أن يكون الاستثناء مُنقطعًا إن حُمِل الكلامُ على أنْ ليس لهم طعامٌ أصلًا؛ لأنَّ الضّريعَ ممّا لا يُؤكل؛ أيْ: إذا كانت الإبلُ والبهائم تعافُهُ فأحرى أن لا يأكلَه الآدميّون. فعلى هذا لا يندرج الضَّريعُ تحت معنى ﴿طَعَامٌ﴾، إذ هو ليس بطعامٍ[3]. وسيأتي تفصيلُ المسألة أكثرَ في توجيه المُتشابه اللفظيّ.

بلاغةُ تضافرِ قصرين في الآيةِ:

إنكارُ النّار وما يكون فيها من عذابٍ جهلٌ كبيرٌ بالله وبصفاتِه

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ مؤكَّد بقصرين، لأنَّه تضمَّن القصر بطريق النّفي والاستثناء، وبطريق تقديم المُسند

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 463.
(2) المنتجب، الكتاب الفريد: 6/ 385.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 463.

﴿لَهُمْ﴾ على المُسنَد إليه ﴿طَعَامٌ﴾. ولمّا كان القصر بالنّفي والاستثناء يُسلك مع مخاطَبٍ تعتقد فيه أنَّه مخطئٌ وتراه يصرُّ على خطئِه؛ أفادَ القصرُ بطريق النّفي والاستثناء في جملة ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ تقريرَ إنكار الكفّار للنّار وما يكون فيها من أحوالٍ وأهوالٍ عظيمةٍ. ففيه إشعارٌ بجهلِهم في إنكارِهم وإصرارِهم عليه. كما أفاد القصرُ الحصرَ بمعنى إثبات الطّعام الذي يكون من ضريعٍ لهم ونفي ما عداه. وسيأتي بيان المقصود بنفي ما عداه من الطّعام لأهلِ النّار في مسألة توجيه المُتشابه اللفظيّ.

معنى ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾:

الظّاهر أنَّ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾ بيانيَّةٌ، فيكون الضّريع بيانًا للطّعام. وأجاز بعضُ المُفسِّرين أن تكون ابتدائيَّةً، فيكون المعنى: (لهم طعامٌ يؤخذ من ضريع). فيكون المقصود من الضّريع الشّجر الذي في النّار، وهذا الشّجر هو الذي يسيل منه الغِسْلين الوارد في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحاقّة: 35 - 36]؛ أيْ: (ليس لهم طعامٌ إلّا ما يخرج من ضريع)، والخارجُ هو الغسلين[1].

الضّريعُ هو الشّجرُ الذي في النّار، والغِسْلين هو الذي يسيلُ من هذا الشّجرِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿ضَرِيعٍ﴾:

جاء لفظ ﴿ضَرِيعٍ﴾ نكرةً منوَّنًا لإفادة التّحقير؛ بمعنى أنَّه نبتٌ حقيرٌ لضررِه وعدمِ نفعِه، فهو نباتٌ تأكله الإبل فإذا يبِسَ تَرَكَته.

بلاغةُ الآيةِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ دلَّ أسلوبُ الحصر على إثبات طعامٍ من ضريعٍ لأهلِ النّار؛ فيحتمل أن يكون المُرادُ أنَّ حقيقة الطّعام من الضريع، ويحتمل أن يكون على سبيل

الضّريع هو الشّجر الذي فيه شوكٌ، أو هو ما يضرُّ ويُكره من الطّعامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 279.

المجاز أو الكناية بأن يكون قد أراد أنَّ هؤلاء قوم يقتاتون ما يضرُّهم وما يكرهونه وما لا يشبعهم، وضربَ الضريع لهم مثلًا؛ أو يعذّبون بالجوع كما يُعذَّبُ مَن قوتُه الضريع[1]. فيكون قد ضرب لهم مثلًا ممّا يفهمون ويعلمون؛ لأنَّ الضّريع هو نبات تأكله الإبل فإذا يبس تَركَته وعافته ولم تأكله ولو لم يكن كذلك لأنكروه. وفي حديث ابن عبّاس أنَّه كأظفار الهِرِّ[2].

دلالةُ الوصفِ بجملةِ ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾:

أكلُ الضّريعِ زيادةٌ في العذابِ

جاءت جملة: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ صفةً لـ﴿ضَرِيعٍ﴾، لبيان أنَّ هذا الضّريع ليس من شَأنِه الإسمانُ أو سدُّ الجوع كما هو شأن طعام الدُّنيا، والقصد من الوصف تشويهه، وأنَّه تمحّض للضرِّ[3]. فهو شيءٌ يضطرون إلى أكله من غير أن يكون له دفع لضرورتهم. وأكلُه إنّما هو زيادةٌ في العذاب عليهم؛ لأنَّه لا استعداد لهم وهم في النّار للسّمن والإشباع ولا إفادة لهم مِن جهة طعامِهم[4].

وجه النّفي بـ ﴿لَّا﴾:

أفادت ﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي﴾ نفي الحال والاستقبال؛ بمعنى نفي إسمان طعام الضّريع لأهل النّار وإغنائِهم من جوعٍ في حالِ أكلِهم منه وفي ما يُستقبل؛ والمقصود استمرار هذه الحالة عند أهل النّار.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾:

لا يعود الضّريعُ على آكليه بسِمَنٍ يُصلِح بعضَ ما التفحَ من أجسادِهم بالنّار

السِّمَنُ زيادة البدن من اللّحم والشّحم ووفرته. ويُقال: أسْمَنَهُ الطّعامُ، إذا عاد عليه بالسِّمَنِ. ولمّا كان سمن البدن من الطّعام يدلُّ لزومًا على الانتفاع من الطّعام ومدِّ البدن بالقوّة وحفظ الصّحة

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 49.
(2) أبو حفص النّسفيّ، التيسير في التفسير: 15/ 320.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 279.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 149.

والتَّرفُّه والتّلذّذ. كان نفي الإسمان عن الضّريع في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ نفيًا لهذه الأوصاف كلِّها؛ فلا يعود الضّريعُ على آكليه بسِمَنٍ يُصلِح بعضَ ما التفحَ من أجسادِهم بالنّار[1].

وجهُ العطفِ بالواوِ:

أفاد العطف بالواو في قوله: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ الجمع بين نفي إسمانِ الضّريعِ ونفي إغنائِه. فالواو لمنعِ الخلوِّ؛ فإذا خلا الطّعام منهما عُلِمَ أنَّه شيءٌ مكروهٌ منفورٌ عنه[2]. فأفاد العطفُ أنَّ منفعتي الطّعام - وهما إفادة القوّة المعبّر عنه بالسِّمَنِ، وسدُّ الجوعِ المُعبّر عنه بالإغناء من الجوع - منفيّتان عن الضّريع[3]. ففي هذه الجملة إشارة إلى أنَّ إفادة القوّة في البدن اللّازمة من الإسمان غيرُ سدِّ الجوعِ، وأنَّ سدَّ الجوعِ غيرُ إفادة القوّة في البدن.

إذا خلا الطّعام من الإسمانِ والإغناءِ من جوعٍ فهو شيءٌ مكروهٌ منفورٌ عنه

سببُ تأخيرِ نفيِ الإغناءِ عن نفيِ الإسمانِ:

في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ تأخّر نَفيُ الإغناءِ من الضّريع عن نفي الإسمانِ منه، للتوسُّل بنفي الإغناءِ إلى التّصريح بنفي كلا الأمريْن؛ إذ لو قُدِّمَ نفي الإغناء لَما احتيجَ إلى ذكر نفي الإسمانِ ضرورةَ استلزامِ نفيِ الإغناءِ عن الجوعِ إيّاه بخلاف العكسِ، وفي تأخير نفي الإغناء مراعاةٌ للفاصلة ورؤوس الآي[4].

استلزامُ الثاني للأوّلِ دونَ العكسِ

نكتةُ تكريرِ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا يُغْنِي﴾:

أُعيد حرف النّفي (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ لإفادة نفي إغناءِ الضّريع من الجوعِ على الاستقلال، فلمّا جمع مع نفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 279.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 233.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 326.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 149.

الإسمان دلَّ على خُلوِّ الطّعام من الإسمان ومن الإغناء. وفي تكرير (لا) تأكيدٌ للنّفي كذلك[1].

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَلَا يُغْنِي﴾:

لمّا كان الغَناء بمعنى الإجزاء والكفاية ودفع الحاجة[2] وكان الفعل ﴿يُغْنِي﴾ من (أغنى)؛ دلَّ التّعبير بنفي الإغناء في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ على أنَّ أهلَ النّار يجوعون. وأنَّهم في حاجةٍ إلى سدٍّ جوعِهم. وأنَّ طعامَ الضّريع لا يَسدُّ جوعَهم. وعبّر بالإغناء للإشعار بأنَّه لا يسدُّ أدنى جوعِهم؛ أيْ: لا يكفي أيَّ كفايةٍ. فهم في جوعٍ مستمرٍّ سواء أكلوا من الضّريع أم لم يأكلوا.

أهلُ النّارِ في جوعٍ مستمرٍّ سواء أكلوا من الضّريعِ أم لم يأكلوا

معنى (مِن) في ﴿مِن جُوعٍ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ متعلِّقٌ بالفعلِ ﴿يُغْنِي﴾، ويفيد معنى البدليَّة؛ أيْ: لا يُغني غناءً بدلًا عن الجوعِ[3]. ويحتمل أن يفيد حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ الابتداء، كما يُشير إليه كلام البقاعيِّ[4] بمعنى أنَّ ابتداء حالةِ نفي إغناء الضّريع كان من الجوعِ. ليفيد أنَّهم في جوعٍ مستمرٍّ لا ينقطع. فهم إن أكلوا من الضّريع لم يدفع حاجةَ جوعِهم، وإن لم يأكلوا بقَوا على حالةِ الجوعِ.

أهلُ النّارِ في جوعٍ مستمرٍّ، سواء أكلوا أو لم يأكلوا

دلالةُ المصدرِ المُنكّرِ ﴿جُوعٍ﴾:

تنكيرُ المصدر ﴿جُوعٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ للتَّحقيرِ، والمعنى: (لا يغني من جوعٍ ما)[5]، فنفى إغناءَه عن أيِّ جوعٍ وإن قلَّ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 149.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غنى)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 279.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 70.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 326.

فائدةُ حذفِ مفعولِ الفعلَيْن: ﴿يُسْمِنُ﴾ و﴿يُغْنِي﴾:

حُذِفَ مفعولا الفعلين ﴿يُسْمِنُ﴾، و﴿يُغْنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الإسمان والإغناء عن الضّريع، بمعنى أنَّه لا يكون منه إسمانٌ ولا إغناء من جوعٍ بوجهٍ من الوجوهِ، ولا يأتي منه ذلك. وليس القصد نفيَ إسمانِه أو نفيَ إغنائِه من جوعٍ عن جنسٍ معيَّن؛ فالمقصود نفي الإسمانِ عن الضّريع وإغنائِه من جوعٍ على الإطلاقِ؛ مبالغةً في ذمِّه وضررِه ونفي أيِّ انتفاعٍ منه.

بلاغةُ التَّتميمِ:

في قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ فنُّ التتميم وهو من الإطناب، فقوله: ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ جملة لا يمكن طرحها من الكلام؛ لأنَّه لمّا قال ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ ساغ لمتوهِّمٍ أنْ يَتَوَهَّمَ أنَّ هذا الطعامَ الذي ليس من جنس طعام البشر انتفت عنه صفةُ الإسمانِ، ولكن بَقِيَتْ له صفةُ الإغناء فجاءت جملة ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ تتميمًا للمعنى المُراد؛ وهو أنَّ هذا الطعام انتفت عنه صفة إفادة السّمن والقوَّة، كما انتفت عنه صفة إماطة الجوع وإزالته[1].

انتفتْ عن الطعامِ صفةُ إفادةِ السّمنِ كما انتفتْ عنه صفةُ إزالةِ الجوعِ

بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ:

قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ من الاحتباك، فإنّ السِمَنَ أوّلاً يدلُّ على إثبات الهزال ثانيًا، ونفيَ الإغناءِ من الجوع ثانيًا يدلُّ على نفي الشِّبع المدلول عليه بالإسمان أولاً[2]. وعلى بأنَّ نفي إغناء الضّريع من جوعٍ لا يستلزم نفي إسمانِه، وأنَّه إنّما قدِّمَ نفي الإسمانِ للتّصريح بنفي الإغناء؛ فإنّه لا احتباكَ في الجملة.

تَنوّعُ العباراتِ لبيانِ إهانةِ أهلِ النّارِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 461.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 8.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

وَرَدَت آيتان في بيان طعام أهل النّار على جهة الحصر، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحاقة: 35 - 36]، وفي موضع آخر ذَكَر أنَّ شجرة الزقّوم طعامُ الأثيم في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: 43 - 44] فإذا كان الحصر يفيد نفي ما سواه، فما هو الجواب في ما ظاهره تعارض المعنى، بمعنى هل طعام أهل النّار هو الضريع أم الغسلين أم الزقّوم؟ والجواب له أكثر من وجهٍ:

النارُ دركاتٌ، والجنةُ درجاتٌ، وعلى العمل تقع العقوبات أو المثوبات

الأوّل: إنَّ النّار دركات، والجنَّة درجات، وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثوبات، فمِن أهل النار مَن طعامه الزّقّوم، ومِنهم مَن طعامه غسلين، ومنهم مَن شرابه الحميم، ومِنهم مَن شرابه الصّديد[1]. وحاصله أنَّ العذاب ألوان والمعذَّبون على طبقات، فمِنهم مَن طعامه من ضريعٍ، ومِنهم مَن طعامُه مِن غِسْلين، ومنهم مَن طعامُه من زقّوم، ولكلٍّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم، فذَكَرَ أنواع طعام أهل الشّقاء بحسب أعمالِهم في الدّنيا ودركاتِهم في النّار[2].

الطّعامُ يخرجُ من شجرِ الضّريعِ الذي يسيلُ منه الغِسْلين

والثاني: أن يكون الغِسْلين هو الذي يسيل من شجرِ الضّريع، فلا تنافي بين الآيتيْن، وبيانه أن يكون ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ للابتداء، بمعنى أنَّ الطّعام يخرج من شجر الضّريع. وهذا الشّجر هو الذي يسيل منه الغسلين الوارد في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحاقة: 35 - 36]. والمعنى: ليس لهم طعامٌ إلّا ما يخرج من الضّريع والخارج هو الغسلين، فحصل الجمع بين الآيتين[3].

(1) ابن قتيبة، تأويل مُشكل القرآن، ص: 48، والواحديّ، التفسير البسيط: 24/ 464.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 232.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 297.

الطّعامُ ما أشبعَ وأسمَنَ، وما تعافُهُ منه البهائمُ كَلاطعام

والثالثُ: أنَّ المعنى على جميع الآيات أنَّهم لا طعامَ لهم أصلًا؛ لأنَّ الضّريعَ لا يصدُقُ عليه اسم الطّعام ولا تأكله البهائم الأخرى بل تعافُه لضرره وأذاه، فإذا كانت الإبل التي ترعى كلَّ نابت وهي أعظم الحيوانات إقبالاً على أنواع الشوك تعافُه ولا ترعى منه، فأحرى أن لا يَطعمه الآدميّون؛ لأنَّ الطّعامَ ما أشبع وأسمن وهو عنهما بمعزلٍ وكذلك الغِسلين ليس من الطّعام، المقصود أن لا طعامَ لهم أصلًا، وهو جارٍ على أسلوب العرب في نفي الشّيء أصلًا عن طريق إيجابِه. كقولِهم: ليس لفلانٍ ظلٌّ إلّا الشّمس. ومرادهم نفي الظلِّ على التأكيد؛ أيّ: لا ظلَّ له أصلًا[1]. فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعًا[2].

الطعامُ الرديءُ زيادةٌ في العذابِ

والرّابع: أنَّ يكون المقصودُ مِن ذِكْر الضّريع ذلك المرعى السوء الذي لا تعقد عليه السائمة شحمًا ولا لحمًا، وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها ومثله الغِسْلين. والمُرادُ أنَّه يُؤتى لهم بالطّعام الرّديء الذي لا يُؤكل. ليكون طعامهم زيادة في العذاب[3]؛ أي: يَطعمون طعامَ إيلامٍ وتعذيبٍ لا نفعَ فيه لهم ولا يدفع عنهم ألمًا[4]. أو يُقال: على القول بأنَّ الضريع مجازٌ أو كنايةٌ أُريد به طعامٌ مكروهٌ حتى للإبل وغيرها من الحيوانات التي تلتذُّ رعيَ الشَّوك فلا ينافي كون طعامِهم زقومًا أو غسلينًا[5]، فيكون ذِكْر الضّريع على سبيل المجاز أو الكناية وذِكْر الغِسْلين والزَّقّوم على سبيل الحقيقة؛ أيّ إنَّهم إذا أحَسّوا بالجوع، وطلبوا الطعام أُتيَ لهم بالضريع، وهو ذلك المرعى السوء الذي لا تعقد عليه السائمة شحمًا ولا لحمًا، وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها، والمُراد بهذا كُلِّه: أنه يُؤتى لهم برديء الطعام.

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 743، والشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 243.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 463.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 30/ 132، والهرريّ، حدائق الرّوح والريحان: 31/ 376.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 279.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 326.

والخامس: إنَّ تنوّع طعام أهل النّار هو تنوّع طعام الشّخص الواحد فيها، بأن يُجعل كلٌّ من الضريع والغِسلين والزقوم بالنسبة إلى شخصٍ واحدٍ بحسب الأعمال المختلفة؛ فإنَّ لكل عملٍ أثرًا مخصوصًا وجزاءً مُتعيِّنًا فيصحُّ الحصرُ[1]. وتنوّع الطّعام القبيح للشخصِ الواحد زيادة في العذاب كما أنَّ تنوّع الطّعام الحسن للشّخص الواحد زيادة في النّعيم، وأجاب ابن عرفة عن دفع التّعارض بنكتة التّعبير بالطّعام وليس الأكل، ففرّق بينهما وذكرَ أنَّ الضريع طعامهم ولا يأكلون منه وإنما تكون المعارضة أن لو قيل ليس لهم أكل إلا الضريع، أو يكون الضريع نارًا فأكلُهم للضريع أكلٌ للنار، والأكل المضغ فهو في الفم لا في البطن لكن روعي السَّبب، فذُكِر الطّعام لأنَّه سببٌ للأكل[2].

تنوّع طعام أهل النّار وِفاق أعمالهم المختلفة؛ فإنّ لكلٍّ منها جزاءً مخصوصًا

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغشيان والتغطية:

الغشاء هو ما يحيط بالشّيء وقد يكون رقيقًا يَبينُ ما تحته، ويتوهَّمُ الرائي أنَّه لا شيءَ عليه لرقَّتِه، كما أنَّ الغشيَ لم يستعمل إلّا في معنى التّهويل أو التّفخيم. وأمّا الغطاءُ فهو وإن كان يحيط بالشّيء إلّا أنَّه يقتضي سترَ ما تحته؛ لأنَّه لا يكون إلّا كثيفًا ملاصقًا، والغشاءُ لا يقتضي ذلك. فلمّا كان الأمرُ كذلك في الفرق بينهما عبّر بقولِه: ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ للإشارة إلى أنَّ الغاشية حادثةٌ مهولةٌ تحيط بالنّاس مِن جميع جوانبِها على جهة غشاوتِها لهم، وليس المقصود أنَّها تُغطّيهم وتسترهم كما يُغطّي الثوبُ الإنسانَ.

الغاشية حادثة مهولةٌ تحيط بالنّاس تغطّيهم كما يُغطّي الثوبُ الإنسانَ

الخشوع والتذلل والخضوع:

الخشوع لا يكون إلّا مع خوف الخاشع وهولِه وذلَّتِه الذي يظهر في

(1) حقّي، روح البيان: 10/ 413.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 270.

بعض الآثار عليه مثلَ خفض صوتِه. كما أنَّ الخشوع أظهر ما يكون في الوجه. فيوصَف الوجه بالخشوع كما توصَف به الأبصار والأصوات كذلك. وأمّا التّذلّل فهو إظْهار العَجز عن مقاومة مَن يتذلّل لَهُ[1]، فقد يكون التّذلُّل من غير هولٍ ولا خوفٍ. فكلُّ خاشعٍ ذليلٌ من غير عكسٍ. وأمّا الخضوع فهو التَّطامن والتَّطأْطُؤ، وأظهر ما يكون في تطأطئِ الأعناق ولا يقتضي أن يكون مع الخضوع خوف، والخضوع فيه إشارة إلى الإقرار بطلب الاستجداء[2]؛ وفرّق البيضاوي بين الخشوع والخضوع؛ ففسّر الخشوع بالإخبات، وأمّا الخضوع فذكر أنَّه بمعنى اللين والانقياد؛ ولذلك يُقال: الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب[3]. فلمّا كان الكلام في الآية عن ظهور هولِ آثار القيامة على أهل النّار؛ عبّر بخشوع الوجوه دون خضوعِ القلوب وطأطأة الأعناق. أو يُقال: لمّا أراد الإخبار عن هولِ ما يصيب وجوه أهل النّار؛ ناسب أن يقول: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ لأنَّ الخشوع للوجوه والخضوع للأعناق؛ كما أنَّ المقامَ ليسَ مقام ذِكْرِ استجداء أهل النّار ليخبر عن خضوع الأعناق؛ بل بيان هولِ الموقفِ عليهم وذلّتِهم وخسرانِهم. وقيل: الخضوع في البدن والخشوع في البصر والوجه.

الخشوعُ لا يكون إلّا مع خوفِ الخاشعِ وذلّتِه، وأظهر ما يكون في الوجهِ

(الحامية) و(الحارقة) و(اللاهبة):

النّار الحامية هي النّار المتوهّجة شديدة الحرارة، وأمّا الوصف بالحارقة فهو من الحرق وهو اضطرام النّار بحيث يظهر أثر لهبِ النّار في ما تحرقه؛ لأنَّ المعنى المحوري للحرق هو تحويلٌ حادٌّ أو بالغٌ ينال مادة الشيء وحقيقته - كحرق النار وهي تُفْنِي حقيقةَ ما تُخرقه وتحوله رمادًا[4] -، ومنه حرق الثّوب لظهور أثر النّار فيه.

وصفُ النّار بالحامية يلزم منه أن تكون حارقة

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 249.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 248 - 249.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 78.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حرق).

وأمّا (لاهبة) فهو من اللهب وهو اضطرام النار ولسانها. واللهيبُ: ما يبدو من اشتعال النار[1]. ولمّا كان السّياق في بيان صلي وجوه أهلّ الشّقاء في النّار، ودخولها فيها؛ ناسب وصفها بالحامية دون الحارقة أو اللّاهبة؛ كما أنَّ وصفَها بالحامية يلزم منه أن تكون حارقة، فكأنَّه وصفها بوصفيْن كونها متوهّجة شديدة الحرارة وكونها حارقة يظهر أثرها في وجوههم وأبدانِهم.

(1) الراغب، المُفردات: (لهب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"